ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الشم والروائح في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب الطب
جوانب من تاريخ خفي

لمياء بوزيد
باحثة في سلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – القنيطرة
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

تعسى الكتابة التاريخية الحديثة استكشاف قضايا وإشكاليات تتسم بالجدة والبحث في مواضيع غير مسبوقة في التاريخ الاجتماعي والثقافي، كونها ظلت خارج دائرة الاهتمام لسنوات طوال. وإذا ما كانت الدراسات الحديثة قد أولت الكثير من الاهتمام بالعطر وصناعته في التاريخ الإسلامي كمظهر من المظاهر الاجتماعية المحببة والمطلوبة، بالنظر إلى قدرته على إلغاء رائحة الجسد الكريهة وتعويضها بأخرى طيّبة تستجيب للأوامر الدينية، ولفوائده المتعددة التي أقرها الطب آنذاك، خاصة مع توفر مادة مصدرية ضمت كتبا مؤلفة خصيصا لهذا الغرض منها كتاب "فنون الطيب والعطر" لابن الجزار، وتلك التي أوردها ابن النديم في فهرسه، فإن روائح أخرى موجودة بالفعل لم تلق العناية ذاتها كروائح الأغذية والروائح الكريهة، وكذلك الحال بالنسبة لحاسة الشم المسؤولة أصلا عن شم كل هذه الروائح، والكيفية التي تتم بواسطتها هذه العملية. وفي هذا الإطار يأتي هذا المقال لتسليط الضوء عن تاريخ الشم في بلاد الغرب الإسلامي، استنادا على الكتب الطبية في تأريخها للروائح، لما لها من أهمية بالغة في الكشف عن جوانب مخفية من صور الحياة الاجتماعية لمختلف شرائح تلك المجتمعات، وبالتالي التعرف على الأنساق الثقافية التي تحكمها، وذلك من خلال التعرف على كيفية تعاملها مع الظاهرة الشمية، وتوضيح مفهوم الشم لديها بدلالاته الطبية، الاجتماعية والدينية، والعوامل المؤثرة فيه، والتمييز بين أنواع الروائح، فضلا عن أهمية شم الروائح من أجل الوقاية الصحية والعلاج من بعض الأمراض وفق ما يتطلبه البحث التاريخي من رؤية متكاملة بعيدة عن أي خلل منهجي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٧ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

تاريخ الشم؛ الروائح الطبية؛ الروائح الكريهة؛ روائح الأغذية؛ التاريخ الوسيط

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.339620

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

لمياء بوزيد. "الشم والروائح في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب الطب جوانب من تاريخ خفي".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٤٧ – ٥٧.

Corresponding author: lamiaebouzaid@gmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

قليلة هي الدراسات التي عنيت بالبحث في تاريخ الشم والرائحة، وإن صح التعبير فقد اقتصر الأمر على بعض الأدبيات والبحوث العلمية التي حاولت الكشف عن أسرار هذه الحاسة وسبر أغوارها [١]، وذلك على الرغم من الأهمية التي صارت لهذه الأخيرة خاصة بعد جائحة كورونا أواخر سنة ٢٠١٩م، حيث تسبب فقدان الشم بشكل كلي (l'anosmie) أو جزئي (l'hyposmie) حسبما أثبته الواقع الاجتماعي في حالة من الذعر، سيما وأنه ارتبط أيضا بفقدان تذوق النكهات، مما جعل الناس يستشعرون الأهمية البالغة لهذه الحاسة، وحاولوا استرجاعها بشتى الطرق، ومن أهمها الطريقة التقليدية عبر استنشاق النباتات العطرية القوية وزيوتها. بناءً على ذلك جاءت أهمية دراسة حاسة الشم والروائح في تاريخ المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط التي تكاد تصل الدراسات حولها إلى العدم المطلق، من أجل إعادة بناء الماضي من جهة، وإبراز راهنية الموضوع من جهة أخرى.

ولما كانت تيمة الروائح قد عرفت تداخل عدة أبعاد، منها الدينية والقانونية والاجتماعية والسياسية عكستها لنا كتب النوازل والحسبة وبقية المصادر الأخرى، فإننا اخترنا أن نلج إلى هذا الموضوع أساسًا من زاوية ما تقدمه المتون الطبية من مادة فريدة وأصيلة بهدف معرفة النظرة الوسيطية إلى هذه الحاسة بصفة عامة وإلى الروائح خاصة، والتي استطاعت إبراز تأثير حاسة الشم على المشاعر والأحاسيس والسلوك النفسي البشري عمومًا من خلال الكشف عن أسباب وآليات توظيفها وأهميتها من خلال النتائج المترتبة عن ذلك.

أولاً: الشم (المفهوم والدلالة)

لكل ظاهرة معينة مصطلح يعبر عنها، ويحمل في طياته اشتقاقات لغوية وتفاسير عديدة تستوجب الإحاطة بها، كي يتأتى فهم تلكم الظاهرة وتتبعها في نسقها الشمولي عند تحليلها. لذلك فعند العودة للمعاجم اللغوية نجد أن الشم هو مصدر شمِمت، وهو حِسُّ الأنف، وإدراك الروائح[٢]. وبالانسياق مع تفرعات مادة "شمم" والتي تقول: تشمّم الشيء أدناه من أنفه ليجتذب رائحته، وأشممت فلانا الطيب فشمّه واشتمّه، والشمّامات ما يُتشمّم من الروائح الطيبة[٣]، يتسنى ربط الشم بعنصرين أساسين: أولا، الأنف كعضو يتم على مستواه الحس الشمي، والثاني، الروائح التي يقع عليها فعل الشم، والمقصود بها الطيّبة على وجه التحديد.

أما عن مفهوم الشم في الفترة الوسيطية، فقد طغى عليه البعد الطبي في التنظير، إذ احتفظ لنا ابن الجزار بنص بالغ الأهمية عن ماهية هذه الحاسة حين قال: «والشم إنما يدرك الروائح بتوسط الهواء على ما بيّنا. وليس الشم كسائر الحواس ذلك أن كل حاسة تدرك اللذيذ والكريه عندها والأشياء المتوسطة بين هذين كالبصر(...) وكذلك الذوق(...). وليس الشم كذلك لأنه يدرك الرائحة الطيبة الكريهة ولا يدرك المتوسط بين الرائحتين»[٤]. ويضيف أنه من مميزات الشم إدراك الإنسان الروائح القوية إذا حملها بيده سواء في حركته (واقفا) أو سكونه (ماضيا)، هذا بالإضافة إلى قدرته في التعرف على عدد أصناف الروائح المجتمعة والمقدمة له، بحيث أنه مثلا «إذا شم المسك والصندل والكافور، علم أنها ثلاثة أشياء»[٥].

والحقيقة أن المثال الذي يسوقه ابن الجزار، يتعلق بأنواع طيب تتميز برائحة قوية خاصة بكل واحدة منها، وهذا راجع أساسا إلى اهتمامه في هذا المصنف بصناعة الطيب والعطر. وكما هو معلوم، فهذا الفن يقوم أساسا على نباتات وعقاقير عطرية تشكل أصول تركيبات مثل الغوالي واللخالخ وغيرها[٦]، لكن إذا اتفق أن تعلق الأمر بالروائح المركبة من جواهر أي أصول مختلفة، ذات روائح قوية وأخرى لا رائحة لها أو ذات رائحة ضعيفة، فسيكون من الصعب تحديد أصول جميع هذه الروائح، فحاسة الشم إنما تدرك ما كان أصله بسيطا مفردا[٧]، وهذا ما تفطن إليه ابن رشد حين أقر بخطأ الحكم على الكل بالجزء[٨].

ومهما يكن من أمر، ففي كلتا الحالتين هناك روائح أو رائحة على الأقل تشم، لكن ماذا عن سبب حدوثها، وكيفية شمها، فمن وجهة نظر فلسفية، تنتج الرائحة عن تحلل بخار شيء معين، أو تكون بانفعال من الهواء أو تأدية، بينما من الزاوية الطبية، فشم الرائحة يكون في الأصل بتغير ما يقع من الهواء على سبيل التأدية،

يساعده بعد ذلك صعود محسوس الشم وهو البخار المتحلل من الجسم وذي رائحة معينة[٩]، والرائحة بهذا المعنى عبارة عن "بخار ينحل من الجسم ذي الرائحة بتشارك الهواء المحيط، وينفذ معه إلى المنخرين إلى الدماغ بالاستنشاق فيشمه الإنسان بمشاركة الروح الحساسة التي في بطون الدماغ"[١٠].

إن هذا التصور لمفهوم الرائحة يجعل من الدماغ العضو المسؤول عن فك شفرة البخار المستنشق والمنبعث من الأشياء ذات الروائح على وجه الخصوص. ذلك أن للدماغ أربعة بطون، اثنان منها في مقدم الدماغ، والثاني في الوسط، والأخير في المؤخرة، وينبثق من البطنين المقدمين "زائدتان شبيهتان بحلمتي الثدي، تبلغان إلى العظم الشبيه بالمصفى، وهو عظم مثقب ثقبا كثيرة على غير استواء، وموضعه من القِحف[١١]، حيث ينتهي إليه أقصى الأنف"[١٢]، مما يساعد على "الاستنشاق وعلى نقض الفضل بالعطاس وعلى توزيع أكثر الروح الحساس وعلى أفعال القوى المصورة من قوى الإدراك الباطن"[١٣]، ويكون ذلك حينما يخالط الهواء البخار المنحلّ من الأجسام المشمومة، وعند دخوله إلى المنخرين يصل مباشرة إلى الزائدتين، فتتحول طبيعة هاتين الأخيرتين إلى طبيعة ذلك البخار المستنشق[١٤].

وقد حظي هذا التفسير بالقبول من قبل أكثر الأطباء وقتئذ، وحتى سابقيهم كجالينيوس حين ربطوا إدراك الشم بمقدم الدماغ بما هو مادة الحس لسائر الحواس[١٥]، أو بمعنى أصح أن آلة الشم هي الدائرتيْن المشبهتين بحلمتي الثدي، دون أن تكون هناك ملاقاة بين حاسة الشم والجسم المشموم على العكس من حاستي الذوق واللمس، ويستدلون على ذلك بأمثلة تؤكد أن آلة الشم أغور من الأنف[١٦]، فلو أن إنسانا "أخذ شيئا له رائحة قوية، ثم قرّبه من خياشيمه، وألصقه بها، لما اشتم له رائحة دون أن يتنفس الهواء، ويستنشقه ويجذبه حتى يصل بخاره إلى الدماغ"[١٧].

لكن بالمقابل فإن ابن رشد (ت.. ٥٩٥هـ)، كان رأيه مخالفا تماما، إذ أن الموضع الذي يتم على مستواه هذا الإدراك، والآلة الأولى لحاسة الشم هو الأنف نفسه، عبر المنخرين الظاهرين له، وحجته في ذلك أنه لو كان الأمر كذلك، "لكنا متى سددنا أنوفنا واستنشقنا الهواء على الفم، أحسسنا بالروائح ضرورة، إذ كان الحنك منفوذا إلى الأنف"[١٨]، كما أنه يفند مزاعم الآخرين في ربط الشم بمحسوساته عن طريق "الاستنشاق" لبعد موضع الشم في الدماغ، عندما ساق مثالا عن الحيوانات التي لا تستنشق لكنها تتميز بقوة حاسة الشم كالنمل والنحل[١٩]. لكن هذا لا يعني أنه يقصي الدماغ من عملية الشم، فهو يؤكد أن الحواس موجودة فيه، وخاصة السمع والبصر والشم، بل إن الدماغ خادم للقوة المدبرة الحساسة للحواس الخمس عموما والتي تكمن في القلب[٢٠]. وتبقى المفارقة العجيبة ألا أحدا من هؤلاء الأطباء فكر في المزاوجة بين التفسيريْن اللذين يعكسان بالفعل كيفية عمل حاسة الشم حسبما أثبت الطب المعاصر، وإلا لكان سبقا طبيا في تاريخ الطب الإسلامي[٢١].

وإذا كانت حاسة الشم طبيا، وسيلة لشم الروائح الطيبة وغيرها، فإنها قانونيا تصبح غاية في حد ذاتها، نظرا لكونها تدخل – مع بقية الحواس الأخرى– في إطار أحد الوجوه التي يدرك بها العلم، الضروري للإدلاء بالشهادة في المحاكم، إذ يدرك العلم بالعقل مع حاسة الشم جميع الروائح المشمومات[٢٢]، كما أنها تعتبر الطريقة المثلى لتنفيذ عقوبة الحد لشارب الخمر من خلال قدرتها على التمييز إن كانت الرائحة المنبعثة من فمه مسكرة أو لا[٢٣]، مما يعطي لهذه الحاسة قيمة اعتبارية مضاعفة.

ثانيًا: أنواع الروائح المشمومة

انطلاقًا من مفهوم الشم السابق عند ابن الجزار، يتضح أنه قد حصر الروائح بين نوعين اثنين معروفين، هما الروائح الطيبة والكريهة، والواقع أن هناك اختلافا بين العلماء حول هذا الأمر، فبين من يتفق مع ابن الجزار على ذلك، نجد أن آخرين يقسمون الروائح إلى أكثر من ذلك، وعليه فقد جاء تقسيمنا على الشكل التالي:

٢/١-الروائح الطيّبة

حسب ثابت بن قرة (ت.. ٢٨٨هـ)، فإن جالينيوس يعرّف هذا النوع من الروائح بكونه مجانسا للإنسان[٢٤]، وبذلك فهي مقبولة عند الطبيعة البشرية بالموافقة والمشاكلة[٢٥]، ومن أهم أصنافه ما تتلذذه النفس مثل

الطّيب، ويكتسي أهمية بالغة باعتباره نافعا للأعضاء الرئيسية في الجسم المتمثلة في الدماغ، القلب، والكبد، فضلا عن كونه "يطيب النفس، ويحدث السرور ويشجع ويقوي جميع الجسد وخاصة المعدة وسائر الأعضاء"[٢٦].

ومن عناصر الطيب وأشهرها هناك العنبر والمسك والكافور والعود، والزعفران، والقرنفل، والمصطكى وغيرها[٢٧]، وهي ذات أصول نباتية، حيوانية، وتتميز هذه الروائح الذكية العطرة بالضرورة بجوهرها الحار- وبطعم يغلب عليه الحلاوة واللذع[٢٨]- باستثناء البعض منها وأشهرها الورد والريحان والنيلوفر والبنفسج[٢٩]، مما يفسر استخدامها في صناعة الطيوب بمختلف أنواعها، سواء بشكل مفرد أو تركيبي، لأن تلك الحرارة تعمل على تلطيف "الجوهر الذكي" لتلك العناصر، فتصبح سريعة التحلل مع البخار، وبالتالي تسهل عملية وصولها إلى الروح النفساني الذي في بطن الدماغ فيقبله ويوافق عليه بسرعة، علما أنه وكما سبقت الإشارة، في حالة الروائح المركبة لا يصل إلى الدماغ سوى أحد الجواهر المكونة لها، وخاصة ذلك الجوهر الذكي الموافق للروح النفساني، إذ أن هذا الأخير وبحكم لطفه لا يقبل من الشيء إلا ما شاكل طبيعته[٣٠].

لهذا السبب، فإن قبول الدماغ للرائحة العطرة سيترجم على أرض الواقع عبر اتخاذ الطيب كأحد المثيرات للرغبة الجنسية، بما أنه يحرك اللذة والعشق لكلا الطرفين على اعتبار أن لكل جنس مواد عطرية ملائمة له [٣١]، ومن ثم أصبحت حاسة الشم شرطا أساسيا في تبلور السلوكين الجنسي والنفسي، تغذيهما "الذاكرة الشمية" التي تعمل على تخزين واسترجاع الروائح المعلومة لديها لا شعوريا متى تم تنشيطها بأي نوع منها[٣٢]. وكذلك ستشكل الروائح العطرة أحد المظاهر المميزة للمجالس، التي فرشت بأصناف الرياحين بمختلف أنواعها[٣٣]، وكذا أثناء الاحتفالات في المناسبات الكبرى من لدن الأمراء والوزراء وعلية القوم، ولعل احتفال المأمون بن ذي النون (ت.. ٤٦٧هـ) بإعذار حفيده أبلغ صورة عن "مجالس التطييب" تلك[٣٤]، إلى درجة أن العطور خاصة الفاخرة، صارت من أفضل ما يقدم كهدايا للسلاطين وغيرهم[٣٥]، وهو ما جعل إدريس الأول (ت. ١٧٧هـ) يقع ضحية طيب مسموم[٣٦].

وفي ذات المنحى، فقد سعى الجميع للحصول على أنواع الطيب كل من موقعه الاجتماعي، بدليل انتشار دكاكين العطارين بالمدن الوسيطية، ويكفي الرجوع إلى الوصفات الخاصة بالملوك والوزراء والأشراف، وبين عامة الناس ليتبين بالملموس أن الروائح العطرية المستخلصة من مختلف عناصر الطيب، لتعطير ذواتهم وملابسهم وحتى أيديهم، شكلت مؤشرًا للتراتب الاجتماعي بامتياز[٣٧]، بل إن التصرف الذي بدا غريبًا للحكم المستنصر بالله (ت. ٣٦٦هـ) حين أمر بغالية [٣٨] في واقعة الربض المشهورة[٣٩]، ما هو إلا انعكاس أمين للتمايز الطبقي بواسطة الطيب، وإن كان ذلك حتى في زمن الفتنة![٤٠]

٢/٢-الروائح الكريهة

قبل الحديث عن الروائح الكريهة من المفيد الإشارة إلى أنها تتخذ تسميات أخرى، فزيادة على ما هو معروف كالنتنة والفاسدة والخبيثة، يسجل مصطلح "الزهمة"[٤١] حضوره القوي، والزهومة هي الرائحة الثقيلة المنتنة، والزهم هو الشحم[٤٢]، مما يحيل إلى أنها مرتبطة بهذا الأخير، ومما يعضد ذلك أن ابن الجزار قد أدرج إزالة الرائحة الزهمة في إطار وصفه للأشنان الذي يخصص لغسل اليدين[٤٣]، أي تلك التي بها دسم الشحم، بل إن الإسرائيلي(ت. ٣٢٠هـ) كان أكثر وضوحا أثناء شرحه، فالشيء الفاسد جوهره لرطوبة عفنة تكون رائحته زهمة، أما ما كان لحرارة خارجة عن الطباع المعتدل، فتكون منتنة[٤٤]. كما يضيف مفردات أخرى من قبيل، الزفورة"[٤٥]، و"السهوكة"[٤٦].

وبالمثل تعمل حاسة الشم على إدراك الروائح الكريهة أو "المخالفة" أو المباينة للإنسان على حد قول جالينيوس[٤٧]، وعوض الموافقة والمشاكلة فإن هذه العملية تتم بانفعال، ذلك أن الروائح النتنة كونها عبارة عن "مزاج يتولد عن رطوبة غريبة وعن حرارة عفونية"[٤٨]، يتعسر تحللها في البخار بسبب عدم قدرة الطبيعة على نفي الفضول الغليظة عنها، الشيء الذي ينتج عنه وصولها إلى الدماغ بعد مدة، فيقبله بانفعال بفعل قهرها وغلبته عليها، وذلك لمخالفة طبيعته للرائحة الكريهة[٤٩].

ولعل ذلك يبدو جليا، من خلال ما يترتب عن استنشاق الروائح النتنة المنبعثة من المواضع الفاسدة، من الإصابة بألم الرأس والذي عرف بـ«الصداع النتن»[٥٠]، وسعي الأطباء لمداواته عن طريق وصفات علاجية مناسبة لكل حالة من الحالات[٥١].

إن هذا التأثير الانفعالي ضد الرائحة النتنة، والمؤطَّر خاصة من طرف الدين الإسلامي بأوامر توجب التطهر منها، كان على ما يبدو سببًا في محاولة إقصائها وإن كانت نابعة من الجسد نفسه، كما هو الحال في بخر الفم، ونتن الإبطين، أو درن البدن، وهو ما جعل الأطباء يفردون حيزا مهما لذلك[٥٢]، ويعطي للنظافة بمختلف طرقها ووسائلها- إلى جانب العطور- قيمة اعتبارية مهمة في تاريخ الرائحة.

كما أن المتأمل لمجريات الواقع بالغرب الإسلامي، يستشف بأن هذه الروائح على المستوى الخارجي أي البيئي، كانت مرفوضة تماما، وهو ما أجمله ابن رامي حين تحدث عن ضرر الرائحة الناجم من الدخان والحمام والفرن، فضلا عن المراحيض والقنوات المرتبطة بها، فهذه "الرائحة المنتنة تخرق الخياشيم وتؤذي الإنسان"[٥٣]، ولسنا هنا بصدد التطرق إلى الأمر من الناحية الفقهية وبيان أحكامها، بقدر ما يهمنا ما أسفر عنه ذلك من «استقذار الطباع للقاذورات"[٥٤]، وللجيف والأزبال عمومًا وعدم قبولها داخل المجتمع بدليل اعتبارها من المنكرات المعتادة في الشوارع والمحلات[٥٥].

٣/٢-روائح الأغذية

إن الحديث عن روائح الأطعمة خصوصًا اللذيذة يحيل في الحقيقة إلى صنف ثان من الروائح الطيبة، بما أن للأغذية أيضًا رائحتها المميزة لها، والواقع أن التقسيم الكلاسيكي القائم على مفهوم الطيّب والنتن قد تم تجاوزه عندما تعلق الأمر بالأغذية، حيث تمت إضافة قسم ثالث مرتبط بالطعوم، ويبدو هذا الشيء مقبولا بالنظر إلى الارتباط الوثيق بين حاستي الشم والذوق من حيث الأفعال المؤثرة عليهما كفعل الحموضة والحرافة مثلاً[٥٦]، مما حذا ببعض الأطباء يمكن أن نطلق عليهم التيار الأول، إلى التأكيد على أن الروائح قد تشتق لها أسماء من الطعوم، فتصبح بذلك لها دلائل تساوي دلائل الطعوم مثل الرائحة الحلوة، الحامضة، المرّة، الحريفة[٥٧]، بينما نجد أن هناك تيار ثاني من الأطباء نفى أن تكون للروائح تلك الدلائل، معللين ذلك بأن ما يترتب عن فعل الحموضة والحرافة من تقطيع وتلذيع[٥٨] هما من محسوسات اللمس وليس الشم، أما بالنسبة للاتجاه الثالث فقد أقر بأن للروائح دلائل إلا أنها ضعيفة وغير موثوق بها، ذلك أن حاسة الشم على العكس من حاسة الذوق، فاللسان تأتيه من الدماغ ست عصبات تجعله قادرا على إدراك محسوساته، في حين أن حاسة اللمس لا تأتيه إلا عصبة واحدة والتي بدورها ما يأتيها ليس بالكثير، لذلك فلا تدرك حاسة الشم إلا أطراف محسوساتها، أي الطيّب والمنتن، أما الأنواع التي توجد بينهما فتنسب إلى حواملها كأن يقال مثلا رائحة المسك، ورائحة العنبر وغيرها[٥٩].

إن استعارة أسماء الروائح من حاسة الذوق بهذا الشكل، ومن بقية الحواس عموما كأن نقول رائحة ناعمة، أو شديدة أو خفيفة مثلا[٦٠]، يعبر بحق عن النقص اللغوي لهذه الحاسة، خاصة إذا علمنا أن الدين الإسلامي في دعوته للطهارة، ميز فقط بين الطيّب/ المحمود، والنتن/ المذموم، فسمح للرجل بالتطيب علنا على عكس المرأة، ولم يكن تأخر الوحي عن الرسول (ﷺ) إلا بسبب الأوساخ النتنة المجتمعة لأصحابه تحت الأظافر وفي البراجم (عقد الأصابع)، مع عدم التسوك، وذلك لتعودهم على قبول الرائحة النتنة المنبعثة من جسدهم[٦١].

وبصرف النظر على الاختلاف الحاصل حول مساواة دلائل الروائح بدلائل الطعوم، إلا أن رائحة الأغذية تبقى مقياسًا ومعيارًا لحفظ الصحة، فما كان طيب الرائحة، فهو موافق لها[٦٢]، وما كان كريه الرائحة فغذاؤه مذموم، مضر ومولد للعفونات الفاسدة، لذلك ينبغي تجنبه، أو القيام بإصلاحه ونقله من "الطعم الكريه والرائحة الفاسدة" إلى "الطعم اللذيذ ذي رائحة ذكية" وبالتالي مقبولة[٦٣].

٤/٢-روائح/ أبخرة دون رائحة؟

قد يبدو هذا العنوان غريبًا، لكن من المنظور الطبي وقتئذ، هناك من الروائح من تكون ساكنة وخاملة لدرجة أنها لا تصدر أي رائحة على الإطلاق، وذلك يعود لطبيعتها الكثيفة والثقيلة، حيث تتمتع بقوة تجاه

الانحلال في الهواء، وبالتالي فإنها لا تتبخر بسهولة، وهذا يعني أن جوهرها لا يكشف عن شيء من طبيعته لا لحرارة ولا لبرودة. وبالتالي، فإنه لا يوجد بخار يتبخر منها ويؤثر في الهواء المحيط بها بأي شكل من الأشكال[٦٤].

ثالثًا: العوامل المؤثرة في الشم

يتعرض الشم مثله مثل سائر الحواس لآفات وعلل تؤدي به من جهة إلى إبطاله، وهو ما يسمى بالخشم أي تعطل الشم وفقدانه[٦٥]، أو ضعفه عن شم الروائح الطيبة والمنتنة معا، أو أحدهما على الأقل، ومن جهة أخرى إلى فساده وتغيره بحيث يتلذذ بروائح غير مستطابة، أو يشم روائح خبيثة رغم عدم وجودها أصلا[٦٦]، كما يعرض عند أصحاب الماليخوليا[٦٧].

ويعود ذلك إلى عدة أسباب لا يسعنا المقام هنا لذكرها ولا لتفصيلها كاملة، لكن يمكن تقسيمها من حيث مكان حدوثها في الأنف إلى نوعين: الأول يتعلق بما دون المجرى النافذ إلى الفم، أي المنخرين، وهنا نستطيع الحديث عن السُدّة فيهما[٦٨] أي انسدادهما، ويكشف عن هذه الأخيرة وجود غنة في الكلام وامتناع عن دخول الهواء داخل الأنف، ثم الأورام خاصة منها اللحم الزائد المعروف ب" البسفايج"[٦٩] أو"فولوقس"[٧٠] الذي ينبت في باطن الأنف، بالإضافة إلى القروح بنوعيها "الخشكريشة"[٧١] وكذا الرطبة التي بها نتن، والبواسير والسرطان، علما أن الفرق بين هذين الأخيرين يكمن في صلابة الورم، فإذا كان متحجرا صلبا فهو سرطان، أما إذا كان رخوا لينا فهو باسور[٧٢].

أما الثاني فيتعلق بما هو فوق المجرى النافذ للفم، فيكون السبب "تعسر الشم من تراكم خلط مخاطي من غير تورم ولا انسداد في ذات الثقب بل يكون من فوق كالطلاء"[٧٣]. أو يكون السبب هو السدة على مستوى مقدم الدماغ، أو بطونه، أو ثقب العظم الشبيه بالمصفاة، فيحدث بذلك في الحالة الأخيرة زكام خفيف، وفي حالة تزامن انسداد الثقب وتورمَ الغشاء المحيط به، فإن مدة الزكام تطول، ولا يبقى من حاسة الشم شيء بتاتًا[٧٤]. وهنا يستوقفنا هذا الأمر بشدة، فبطلان الشم بهذه الطريقة لجدير بالاهتمام، خاصة إذا ما قورن بوباء "كورونا" الذي ضرب العالم مؤخرا، حيث عد فقدان الشم أحد العوارض الدالة عليها، وبالتالي هل كانت العلة السابقة مجرد حالة عادية فردية لمفهوم الزكام، أم أن الأمر ليس إلا امتدادا لمرض كان سابقًا، ويمثل بالفعل جذورًا تاريخية لآفة كورونا؟!

علاوة على ما سبق، يمكن أن ينتج ذلك إما بسبب فساد مزاج الدماغ بحيث يسخن أو يبرد نتيجة لاستعمال الأدوية، وإما بفعل أهوية متغيرة، أو بفعل انحدار رطوبة عفنة إلى الأنف من بطون الدماغ أو ثقب العظم به، فيشم العليل ريحا نتنا[٧٥]، هذا بالإضافة إلى أنه يمكن أن يكون السبب خارجيا كأن تتسبب ضربة ما أو سقطة في آفة لعظم الأنف[٧٦].

إن لهذه العلل من العلامات ما كان سببًا في إفراد قسم خاص بأمراض الأنف مع تحديد الأدوية المناسبة لعلاجها بشقيها المفرد والمؤلف[٧٧]، والموجهة للاستخدام الخارجي على هيئة غراغر وأطلية للرأس، أو للاستعمال الداخلي على شكل بخورات، شمومات، سعوطات، نشوقات، ونفوخات[٧٨]، مما يبرز العناية التي وجهت إلى الأنف عموما وحاسة الشم تحديدا، لما لها من أهمية في حياة الأفراد تتمثل في تلذذ النفس بالروائح الطيبة العطرة إن لم تكن التلذذ بالحياة نفسها.

رابعًا: علاقة الأمراض بشم الروائح

لما كان البعد التجريبي للمعرفة الطبية راسخا ببلاد المغرب والأندلس[٧٩]، فقد تضمنت مصنفات الأطباء وصفات علاجية واستطبابات دوائية استخدِم فيها شم المشمومات ذات أصول نباتية وحيوانية، إما بشكل مباشر أو عن طريق التبخير الذي يتطلب الحرق بالنار. والمتصفح للمتون الطبية، يستشف بجلاء أن الروائح لم يعد دورها يقتصر على إنعاش النفس فحسب، إنما تجاوزه إلى أبعد من ذلك، بحيث أمكن لنا مقاربة استخدام الظاهرة الشمية من ثلاث زوايا، بشكل يعطينا فكرة وتصور أولي حولها بحسب ما يسمح به المجال هنا:

٤/١-علاج بعض الأمراض بالشم

تعددت الأمراض التي عمل شم الأدوية المفردة والمؤلفة على مداواتها ومحاولة التغلب عليها، لكن الملفت للانتباه هو أن تلك الأمراض كان منها مما لا يمكن

الوصول إليه في بدن الإنسان، أي تتعلق غالبا بالأعضاء الداخلية، لا سيما على مستوى الرأس والدماغ والأنف والمرتبطة عموما بالسدد المشار إليها سابقا، وعلى مستوى الصدر والرئة، وذلك لأن الأعضاء الخارجية كالفم والأذن والعين والجلد مثلاً استفادت عادة من أدوية موضعية، بينما الأعضاء الباطنية فقد شكلت الأغذية والأشربة أهم علاج لها، وهكذا يمكن أن نذكر في هذا الصدد، الشقيقة، سدد الدماغ، سدد المنخرين، الأرق، الربو، السعال، والزكام[٨٠].

وغني عن القول، أن الأمراض الوبائية بأصنافها خير معتمد على الشم كآلية من آليات تطهير الهواء الملوث بالنظر لأنه أحد الأسباب الكامنة وراء حدوث تلك الأمراض، وبناء على ذلك شكل إصلاح الهواء الملوث ودفع ضرره الذي يصيب على الأكثر جميع الناس[٨١]، أهم إجراء لجأ إليه الأطباء للقضاء على الروائح النتنة وتغيير الهواء الفاسد بآخر نقي، بواسطة طريق التبخير[٨٢].

وفي هذا السياق يندرج استعمال ثلاث أبخرة وهي العطرية، الدهنية، والقابضة منها العنبر، المَيْعة، المصطكى، الصندل الأصفر والعود والطرفاء الكافور، والزعفران علما أن العطرية منها، ونظرا لرائحتها الذكية والقوية هي التي خصصت لإصلاح الهواء المنتن[٨٣]، بل حتى لإصلاح الأبدان عموما بالنظر إلى علاقة هذه الأخيرة باستنشاق هذه الأبخرة، ووصولها إلى الأعضاء الداخلية[٨٤]، مع تحديد أفضل مكان للبخور وهو موضع دخول الهواء إلى البيت[٨٥]، والأوقات المناسبة لذلك والمتمثلة في «طلوع الشمس وأنصاف النهار وغروبها ونصف الليل، لأن في هذه الأوقات يسيل الهوى[الهواء]، وقد يضاد الهوى المفرط بالرطوبة بالنيران الكثيرة»[٨٦]، وعلى الرغم مما تنطوي عليه هذه الإشارة الأخيرة من نظرية العلاج بالضد، إلا أنها يمكن أن تحمل أيضا تفطن الأطباء لقدرة النيران على تعقيم الجو من خلال الهواء الحار الذي تولده.

هذا وقد أورد ابن البيطار نصا مهما عن المواد العطرية المستخدمة في المجال المدروس بالضبط يقول فيها: «بخور الأندراسيون وعامة بلاد المغرب وبلاد الأندلس يعرفونه باليرطور[ة][٨٧]، إذا بخر به ذهب بكل رائحة عفنة من أي نوع كانت، وكذلك ينفع من الوبا الحادث من الملاحم وينفع من ضروب الوبا[ء] كلها بقطعه الروائح الصاعدة من أجسام الناس وإصلاحه الهوا[ء]»[٨٨]، مما لا يدع مجالا للشك إلى الحضور الوازن للمواد المحلية الموجهة للتبخير بها، ومبادرة الناس لاستعمالها.

إلى جانب ما سبق، لم يكن رش سطوح البيوت والحيطان كل يوم بعد كنسها[٨٩]؛ وشم أنواع الطيوب والمشمومات، أقل شأنًا من الإجراء السابق، كما يفهم من كلام ابن هيدور التالي: «اتخاذها البيوت الشمالية وفرشها بالرياحين الباردة كالآس والخلاف؛ ورشها بماء الورد الممزوج بالخل والتطبب به وبالطيوب الباردة، ومسح الوجه والأطراف بذلك، والمواظبة على شمه؛ وشم الأترج والليم والأزهار الباردة كالورد والبنفسج (...)، والتدخين بالصندل مع يسير من العود الرطب على إثر الرش بماء الورد»[٩٠].

إن هذا النص يوضح بجلاء سعي الأطباء بوعي تام، يسهل إدراكه بكثرة التجارب والمشاهدات المحسوسة لابن خاتمة وابن الخطيب والشقوري وغيرهم، إلى تطويق المرض الوبائي والدفع نحو محاولة اكتساب مناعة ضده[٩١]؛ من خلال تعقيم المكان المحيط بالبدن أرضا وجوا، بتدابير ملموسة كي يصيرا هواؤه نقيا وصحيا وصالحا للعيش، على اعتبار أن روح الإنسان مستمدة منه ولا يمكن تبديله، ولا مندوحة عنه لسواه[٩٢].

كما يسجل حضور الخل كعنصر أساسي في عملية الرش، إذ تنضاف إليه باقي المكونات، لما له من أهمية ملموسة في التعقيم، بينما تجسدت عملية شم المشمومات في مظهرين، الأول عبر شم المواد العطرية من طرف الإنسان كماء الورد والآس في أكثر الأوقات[٩٣]، وهنا نستحضر أيضا طريقتين أخرتين للشم، وتتجلى الأولى في التدخن بالعقاقير والذي يبدو المقصود بها هو ابتلاع الأفراد للدخان بواسطة أنبوب[٩٤]، والثانية في التمرخ بالأدهان اللينة كدهن البنفسج ودهن النيلوفر[٩٥]، مما يسمح بالاستفادة من رائحتها، فضلا عما يوحي استخدامها كطبقة وقائية ضد تسرب الهواء الملوث إلى البدن.

أما المظهر الثاني فتميز بوضع الرياحين بالبيوت كالآس، وورق الكرم، وورق القصب مع تجديدها كل ثلاثة أيام[٩٦]، وهنا نتساءل لماذا وجب ذلك بالضبط بعد المدة المذكورة؟ فمعلوم أن هذه النباتات إذا كانت يابسة فإنها لا تفقد الرائحة بعد تلك المدة البسيطة، إذن فهل هذا راجع فقط لاعتقاد الشقوري وحده واجتهاد من طرفه دونا عن بقية الأطباء، أم أن الأمر يقتصر على استعمال تلك النباتات بشكل طري؟![٩٧]

٢/٤-تحذيرات طبية من شم بعض الروائح

حذر الأطباء من مغبة استنشاق بخور أو شم بعض النباتات خشية التعرض لإصابة ببعض العلل، كما هو حال الصداع، فالجوهر الحار للعناصر العطرة من طيب وأفاويه، وكما يجعل منها محببة ومرغوب فيها، يمكن في نفس الوقت أن تكون مصدّعة[٩٨]، الأمر الذي استوجب تدخلاً قام أساسًا على مقابلتها بالروائح الطيبة الباردة، ويكفي الرجوع إلى المصنفات الطبية للوقوف على الوصفات التركيبية المناسبة للصداع الحار[٩٩].

وبالمثل جاءت الدعوة لتفادي شم دخان الزئبق لتسببه في آفة النسيان والبلادة، والياسمين البري لقدرته على إحداث رعاف قوي، إضافة إلى أن الإفراط في شم الروائح اليابسة أيضا كانت له أضراره، مثل شم الكافور الذي يولد السعال[١٠٠].

٣/٤-حفظ الصحة بالشم

لا غرو أن حفظ الصحة يشكل أحد الغايات الأساسية التي قامت عليها صناعة الطب[١٠١]، ومن المتعارف عليه أنه استند إلى عدة أسس[١٠٢] وطرق، وعليه لم يكن اعتماد شم الأدوية في منأى عن تلك الحركية للمنظومة الطبية، حيث يمكن أن نستجلي ذلك بوضوح من خلال تتبع العلاجات الطبية التي وصفت في هذا الشأن.

فلتنقية البدن من الفضول، استخدم الأطباء الاستفراغ لإخراج العرق كوسيلة من بين عدة وسائل أخرى[١٠٣]، وفي هذا الإطار يمكن العثور على أدوية معرّقة في حالة ما إذا تم البخور بها[١٠٤]، ويشرح الخميري كيفية التعريق تلك فبعد تحضير مطبوخ شبيبة العجوز وشجرة مريم وحجر من الرحى داخل برمة مغطاة، بها ماء به خل، يزال غطاء البرمة بعد صعود بخارها وتُدخل تحت ثياب من يراد تعريقه. ومن الأكيد أن هذا الأسلوب في العلاج ما زال يجد صداه إلى الآن.

وإلى جانب ما سبق، قدم الأطباء عدة نصائح تروم حفظ أعضاء البدن بعينها، كما هو الحال في جوهر الدماغ وتقويته وتنقيته[١٠٥]، عن طريق استنشاق دخان العود والمسك والروائح الطيبة عموما واجتناب الروائح الخبيثة[١٠٦]، وينطبق الأمر نفسه على صحة الأنف، مع الإكثار أيضا من شم الروائح المفتحة لسدده[١٠٧]، هذا بالإضافة إلى ما للبخور من أهمية في تقوية الذهن وآلات الحس[١٠٨]، بل إن اتخاذ الأبخرة يكون بمثابة إجراء وقائي للأبدان قبل وقوع مرض الوباء خصوصًا بالنسبة لأصحاب الأجسام البدينة، وكذا فئة الشيوخ[١٠٩].

تأسيسًا على ما سبق فإن الدعوة إلى استنشاق الروائح الطيبة والتحفظ من الروائح الكريهة انتقل من بدن الإنسان إلى محيطه، وهو ما تبلور حينما نصح الأطباء بضرورة بعد مكان السكن عن أماكن التلوث كالمداخن والمدابغ وأماكن رمي الأزبال[١١٠]، والابتعاد عن المياه الملوثة في الحياض والمستنقعات والبرك الراكدة، لأن الهواء إذا كان «مجاورا للمياه الفاسدة، أو مناقع متعفنة، أو مروج خبيثة، أسرع إليها العفن من مجاورتها»[١١١]، ويشم عن بعد نتنها[١١٢]، مما ينعكس سلبًا على صحة الإنسان والحيوان، فكان اختيار مواضع ذات هواء ومياه سليمين من بين الشروط الواجب مراعاتها عند بناء المدن.

خَاتِمَةٌ

قصارى القول، إن تاريخ الشم/الرائحة هو مزيج من التأثيرات الملموسة على السلوك الإنساني، نفسيا وجنسيا وانفعاليا، اعتمادا على العلاقة الوثيقة بين الرائحة والذاكرة الشمية المستحضرة لها.

وإذا كانت النظرة نحو شم الروائح قد تغيرت مع مجيء الدين الإسلامي، فإنها ستتخذ منعطفا مهما مع المدرسة الطبية ببلاد المغرب والأندلس، فكان أن أصبح شم الروائح الطيّبة والتبخير بالنباتات العطرية مطلبا ملحا حين رفع الأطباء من قيمتها الطبية في التعامل مع الأمراض والأوبئة – وصلت تداعياتها لحد اليوم باللجوء إلى نفس الطريقة لمواجهة وباء كورونا أمام عجز الطب المعاصر عن احتوائه– ناهيك عن مزاياها الجنسية، وهو ما تحقق بفعل الاستفادة من عناصر الطيب بمختلف مكوناتها المحلية منها والمستوردة، في حين تم الحط من شأن الرائحة الكريهة التي أصبحت محظورة بدنيا، اجتماعيا، وبيئيا، لما تثيره من مشاعر وأحاسيس مقززة، كما شكلت الدراسة فرصة لإبراز وجود أسماء روائح جديدة، تبين استخدامها في العصر الوسيط متجاوزة بذلك التقسيم الكلاسيكي الذي حصر الروائح بين ثنائية الطيّب/ النتن.

إن ما قدمناه في هذه الدراسة لا يعدو أن يكون تصورا أوليا ينحو نحو محاولة إثارة الانتباه نحو الظاهرة الشمية لما لها من مكانة مهمة في الحياة الشخصية، وذلك في انتظار توسيع دائرة المصادر ذات الصلة وبالتالي فتح آفاق نحو إغناء البحث التاريخي بمزيد من البحوث الجديدة.

الاحالات المرجعية:

(١) من بين هذه الدراسات: - باتريك زوسكيند، **العطر قصة قاتل**، ترجمة نبيل الحفار، دار المدى، ط. ٢، ٢٠٠٧.

- بيت فرون وآخرون، **الرائحة أبجدية الإغواء الغامضة**، ترجمة صديق محمد جوهر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط. ١، ٢٠١٠. - رضا الأبيض، **كتابة الرائحة في نماذج من الرواية العربية**، دار زينب، تونس، ٢٠٢٠.

Annick Le Guérer, **les pouvoirs de l'Odeur,** Éditions Odile Jacob, 2002.

(٢) معجم اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، ط. ٤، ٢٠٠٨، ص. ٤٩٥.

(٣) ابن منظور، لسان **العرب**، مجلد ١٢، دار صادر، بيروت، 1997، ص.٣٢٥-٣٢٦. الفيروزي آبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨، ص. ٨٨٩.

(٤) ابن الجزار، **فنون الطيب والعطر**، تحقيق الراضي الجازي وفاروق العسلي، المجمع التونسي للعلوم والأدب في الفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، ٢٠٠٧، ص.٣٦.

(٥) ابن الجزار، نفسه، ص. ٣٧.

(٦) الزهراوي، **التصريف لمن عجز عن التأليف**، تحقيق محمد العربي الخطابي، ضمن الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي مدخل ونصوص، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠، ص. ٢٧٤، الخميري، **تحفة القادم**، خزانة حسن حسني عبد الوهاب، تونس، رقم: ١٨٥٠٢، ضمن مجموع، ص. ٢٠١ ب، ٢٠٢ أ.

(٧) الإسرائيلي، **الأغذية والأدوية**، ج.١، تحقيق محمد الصباح، مؤسسة عز الدين للطبع والنشر، بيروت، ط. ١، ١٩٩٢، ص. ٤٥-٤٦.

(٨) ابن رشد، **الكليات في الطب**، تحقيق محمد عابد الجابري، مركز الوحدة العربية، بيروت، ط.١، ١٩٩٩، ص. ٣٩١.

(٩) ابن سينا، **القانون في الطب**، ج.٢، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١، ١٩٩٩، ص. ٢٣٤.

(١٠) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ٣٧.

(١١) يقصد بالقحف العظام المكونة للجمجمة، وعددها ستة منها تخص القحف وهي تلتقي في ظاهره بما يسمى الشؤون، ومن الخلف بعظم يسمى الوتد. ابن رشد، **الكليات**، ص. ١٣٥.

(١٢) ابن رشد، نفسه، صص.١٤٨- ١٤٩.

(١٣) ابن سينا، **القانون في الطب**، ج.٢، ص. ٧.

(١٤) ابن مهنا، **الأيضّاح والتتميم لاحتوائه على أمور غفل عنها ذو العمل والتقديم**، المكتبة العامة والمحفوظات، تطوان، رقم: ١٣، ص.١٣٥.

(١٥) ابن رشد، **شرح أرجوزة ابن سينا الطبية**، دار الكتب القومية، مصر، رقم: ١٠٩، ص. ٧٣.

(١٦) كمثال على ذلك يستدل ابن الجزار بعدم وصول بخار الأشياء ذات الرائحة إلى الدماغ وبالتالي عدم قدرة هذا الأخير على شمها حين التعرض لعلة الزكام. ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص.٣٧. وحين يقول علي بن العباس: " متى بخرنا بين أيدينا بخورا كثيرا ومنعنا أنفسنا من الاستنشاق إلى داخل لم نحس بشيء من رائحة ذلك البخار، وإن نحن استنشقنا إلى داخل وجدنا رائحة ذاك البخار، على المكان"، حول هذا الأمر، يرجع إلى: ابن المهنا، **الأيضّاح**، ص. ١٣٦.

(١٧) ابن الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٤٦.

(١٨) يتفق ابن رشد مع أرسطو فقط. للمزيد انظر ابن رشد، **الكليات**، ص.١٩٦-١٩٧.

(١٩) ابن رشد، نفسه، ص.١٩٧.

(٢٠) ابن رشد، نفسه، ص. ١٩١- ١٩٢.

(٢١) حسب الطب المعاصر فإن عملية الشم تتم عند دخول جزيئات الروائح عبر فتحة الأنف، حيث يكون في استقبالها خلايا الشم التي تمتد إلى منطقة الطبقة المخاطية الغنية بالمستقبلات الشمية والتي تقوم برد فعل كيميائي ينتج عنه تولد إشارات عصبية تصل إلى منطقة الشم في الدماغ، حيث تعمل هذه الأخيرة على تحليلها وترجمة تلك المعلومات الشمية لمعرفة نوع الرائحة التي تعكسها. انظر:

Olfactory receptors and the mechanism of odor perception », Ryszard Farbiszewski, Robert Kranc,«
in **Polish Annals Of Medcine**, volume 20, 2013, Poland,pp.51-55.

(٢٢) ابن رشد، **المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات**، ج.٢، تحقيق سعيد أحمد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ص. ٢٨١-٢٨٢.

(٢٣) ابن فرحون، **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، ج.٢، تحقيق جمال مرعشلي، دار عالم الكتب، الرياض، ٢٠٠٣، ص.١٤٧.

(٢٤) ثابت بن قرة، **الذخيرة في علم الطب**، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٨، ص. ٤٥.

(٢٥) الإسرائيلي، **الأغذية والأدوية**، ج. ١، ٤٥.

(٢٦) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ٣٥.

(٢٧) للمزيد حول عناصر الطيب مجتمعة، انظر الزهراوي، **التصريف**، ضمن الأغذية والأدوية، ص. ٢٧٤. وتستورد أصول الطيب الخمسة المسك والعود والكافور من الهند، ماعدا الزعفران والعنبر. المقري، **نفح الطيب**، ج.١، ص. ١٤٤.

(٢٨) ابن سينا، **القانون**، ج.١، ص. ٣٢١؛ ٣٢٥. ابن رشد، **الكليات**، ص. ٣٩١.

(٢٩) ابن رشد، **شرح أرجوزة ابن سينا**، ص. ٢٧.

(٣٠) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٤٦.

(٣١) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ٩٤.

(٣٢) ابن الجزار، نفسه، ص. ٣٧. من وصايا التيفاشي في هذا الصدد: «اعلم أن الرائحة التي تطيب رائحة البدن والثياب من المرآة جالبة لمودة الرجل، وباعثة له على الموافقة». أبو بكر التيفاشي، **أوصاف النساء ووصفات الأعشاب الطبيعية للقوة الجنسية**، تحقيق محمد رجب، دار الحرية، ٢٠٠٦، ص.٦١.

(٣٣) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص.١٢٤.

(٣٤) ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ج.٤، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط.١، ١٩٧٩، ص.١٣١- ١٣٢.

(٣٥) المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج.١، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ص. ٣٥٧.

(٣٦) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص.٢٣.

(٣٧) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ٦٤-٦٩؛ ١١٦. ابن رزين، **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، ١٩٨٤، صص.٢٧٧-٢٧٩.

(٣٨) هي التراكيب العطرية القديمة وهي عبارة عن سحق أنواع متعددة من الطيب كالعنبر والمسك وتحليلها بدهن البان دون اللجوء إلى استخدام النار. زينب سالم صالح، «صناعة العطور في العصر العباسي(١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م) دراسة تاريخية»، مجلة **التربية والعلم**، المجلد ١٩، العدد ٣، ٢٠١٢، ص.١٢.

(٣٩) واقعة الربض هي الثورة التي حدثت بقرطبة سنة (٢٠٢هـ/٨١٨م)، خاضها سكان ربض شقندة ضد الأمير الحكم بن هشام (ت ٢٠٦هـ/٨٢٢م) المعروف بالحكم الربضي، نتج عنها قتل عدد كبير منهم وإجلاء باقي سكان الربض خارج قرطبة حيث تفرقوا بين مدن الأندلس ومنهم من هاجر نحو المغرب. للمزيد ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج.٢، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط.٢، ١٩٨٠، ص.٧٥-٧٧.

(٤٠) ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق محمد علي مكي، س.٢، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط.١، ٢٠٠٣، ص.١٥٧.

(٤١) يستعمل لفظ "زهيم" إلى حدود الآن في الدارجة المغربية.

(٤٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج.١٢، ص. ٢٧٧.

(٤٣) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ١٢٠.

(٤٤) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٥٠.

(٤٥) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص.١١٩.

(٤٦) ابن البيطار، **المغني في الأدوية المفردة**، ج. ٤، مخطوطات تركية فاتح، اسطنبول، رقم: ٣٦٣٤، ص. ٢٦٤ أ. الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ١٦٣. محمد العربي الخطابي، «ابن الخطيب وكتابه الوصول لحفظ الصحة في فصول (القسم الثاني)»، مجلة **أكاديمية المملكة المغربية**، عدد ٤، ١٩٨٧، ص. ١٣١.

(٤٧) ثابت بن قرة، **الذخيرة**، ص. ٤٥.

(٤٨) ابن رشد، **الكليات**، ص. ٣٩٦.

(٤٩) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٤٦.

(٥٠) الزهراوي، **التصريف لمن عجز عن التأليف**، تحقيق محمد العربي الخطابي، ضمن الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة وتراجم ونصوص، ج. ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.١، ١٩٨٨، ص. ١٥٠.ابن سينا، **القانون**، ج.٢، ص.٤٩-٥٠.

(٥١) ابن سينا، نفسه، ص. ٦٥.

(٥٢) الزهراوي، **التصريف**، ص. ٢٩٣-٢٩٤؛ ٢٩٦. ابن البيطار، **المغني في الأدوية المفردة**، ج. ١، مخطوطات تركية فاتح، إسطنبول، رقم: ٣٦٣٣، ص.٢٦٣ أ- ٢٦٤ ب.

(٥٣) ابن الرامي، **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩، ص. ٦١.

(٥٤) ابن الرامي، نفسه، ص. ١٥١.

(٥٥) ابن مناصف، **تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام**، تحقيق عبد الحفيظ منصور، دار التركي للنشر، تونس، ١٩٨٨، ص.٣٣٧.

(٥٦) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص، ٤٤. ويقصد بالحريف ما يلدغ اللسان من الطعوم كالفلفل. الخطابي، «**ابن الخطيب**»، م. س، ص. ١٣٨.

(٥٧) ابن سينا، **القانون**، ج. ١، ص. ٣٢٢. ابن رشد، **الكليات**، ص. ٣٩٦.

(٥٨) يقصد به اللذع ويستعمل لكل ما يحرق. انظر، الخطابي، «**ابن الخطيب**»، م. س، ص. ١٣٤.

(٥٩) حول روائح الأغذية بالتفصيل، انظر الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٤٤-٤٥.

(٦٠) البرزلي، **فتاوى البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من أحكام بالمفتين والحكام**، ج.١، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.١، ٢٠٠٢، ص. ١٣٤.

(٦١) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، دار حزم، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٥، ص. ١٦٣.

(٦٢) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص.٤٩.

(٦٣) الإسرائيلي، نفسه، ص. ١٦٢.

(٦٤) الإسرائيلي، نفسه، ص. ٥٠.

(٦٥) الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، ج.٢، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٩٢٤، ص. ١٠١.

(٦٦) ابن سينا، **القانون**، ج.٢، ص. ٢٣٥. انظر أيضًا ابن زهر، **التيسير في المداواة والتدبير**، الخزانة العامة، الرباط، رقم: ١٥٩، ضمن مجموع، ص. ٢٠.

(٦٧) ابن عمران، **مقالة في الماليخوليا**، تحقيق عادل العمراني والراضي الجازي، المجمع التونسي للعلوم والأدب في الفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، ٢٠٠٩، ص. ٤٩.

(٦٨) السدة داء في الأنف؛ والسدة – مطلقا – هي كل علة تسد مجرى في البدن، والجمع سُدد. الخطابي، **الأغذية والأدوية**، م. س، ص٥٥٧.

(٦٩) الورم الكبير الأرجل. الرازي، **الحاوي في الطب**، تحقيق محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٠، ص. ٤١٨.

(٧٠) ابن البيطار، **المغني في الأدوية المفردة**، ج. ١، مخطوطات تركية فاتح، إسطنبول، رقم: ٣٦٣٣، ص. ٢٠٢ أ.

(٧١) الخركريشة هي القرحة التي ليس معها رطوبة.

(٧٢) الرازي، **الحاوي**، ص. ٤٢٨- ٤٢٩.

(٧٣) ابن زهر، **التيسير**، ص. ٢٠.

(٧٤) ابن زهر، نفسه، ص. ٢١.

(٧٥) الرازي، **الحاوي**، ص. ٤٣٦.

(٧٦)ابن سينا، **القانون**، ج.٢، ص.٢٣٥.

(٧٧) ابن البيطار، **المغني**، ص. ١٠٠ أ- ١٠٢ ب.

(٧٨) حسب ابن سينا فإن السعوطات أجسام رطبة تقطر في الأنف، والنشوقات أجسام رطبة تجتذب إلى الأنف بجذب الهواء، والنفوخات أشياء يابسة مهيأة تنفخ في الأنف بواسطة أنبوب. للمزيد انظر ابن سينا، **القانون**، ج.٢، ص. ٢٣٤-٢٣٥.

(٧٩) سعيد بنحمادة، «الطب والصيدلة بالأندلس: القواعد والتيارات»، مجلة **هسبريس تمودة**، ٢٠١٩، ص. ١٩٣-٢٢٨.

(٨٠) - كان يتم تبخير علة الزكام بالأنيسون والقرص السيني والعود الهندي. الشقوري، **مقالة في الطب**، ضمن الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي مدخل ونصوص، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ط ١، ص.٤٢٧.

(٨١) ثابت بن قرة، **الذخيرة**، ص. ١٦٧.

(٨٢) يقول الزهراوي عن ذلك: «وتقطع البخورات ضروب فساد الهواء الذي يعرض من قبله الطاعون والوباء، والحميات المركبة ونحو ذلك». الزهراوي، **التصريف**، ضمن الأغذية، ص. ٢٩٠.

(٨٣) تنفع الدهنية الهواء الحار اليابس، أما القابضة تصلح الهواء الشديد الرطوبة. للمزيد حول هذا الأمر، ابن البيطار، **المغني**، ج.٤، ص. ٢٨٧ أ وب. ابن زهر، **كتاب الأغذية**، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١، ١٩٩٨، ص. ١٢٦- ١٢٧.

(٨٤) يقول الشقوري في هذا الصدد: «فإن الإنسان لابد أن يستنشق شيئا من تلك الأدخنة والروائح، ويتنفس فيها وهذه فائدة التبخير، فكلما يصلح الهواء، يصلح أيضًا الأعضاء التي تصل إليها، وتقويها على دفع الفساد، وتمنع العفن فيها، فربما اكتسب قوة صالحة مانعة مدة لتصرّف الإنسان في حاجاته»، الشقوري أبي عبد الله بن محمد اللخمي، **تحقيق النبأ في أمر الوباء**، مجموع تحت رقم MSS5067/8 المكتبة الوطنية لإسبانيا، الأسكوريال، و٥.

(٨٥) لطف قاري، **رسالتان في الجغرافيا الطبية وتأثير البيئة**، رسائل جغرافية، عدده ٣٠، جامعة الكويت، ٢٠٠٥، ص.٦٩.

(٨٦) ابن البيطار، **المغني**، ج.٤، ص. ٢٨٧ ب.

(٨٧) هي عشبة الجدرة من نوع الكلخ ومن جنس الهدبات ذان رائحة عطرة مع حدة، تكثر في نواحي طليطلة جبال جيان والجزيرة الخضراء. الإشبيلي، **عمدة الطبيب في معرفة النبات**، ج.٢، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.١، ١٩٩٥، ص. ٦٣٥.

(٨٨) ابن البيطار، **المغني**، ج.٤، ص.٢٨٤ أ و ب.

(٨٩) ابن البيطار، نفسه، ص. ٢٨٦.

(٩٠) ابن هيدور، **المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية**، خزانة محمد المنوني، الرباط، رقم: ٣/٤٥٥، ضمن مجموع، ص. ٤٨. ابن زهر، **التيسير**، ص. ٢٣٣. ابن الخطيب، **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، تحقيق حياة قارة، دار الأمان، الرباط، ط. ١، ٢٠١٥، ص.٦٦. ثابت بن قرة، **الذخيرة**، ص.١٦٨. الخميري، **تحفة القادم**، ص. ٢١١ ب.

(٩١) الشقوري، **تحقيق النبأ**، و٣. ينظر أيضًا شرح ابن الخطيب لكيفية قبول الجسم للمرض من عدمه، نفسه، صص.٦٨- ٧١.

(٩٢) ابن هيدور، **المقالة الحكمية**، ص. ٤٧-٤٨. انظر أيضًا، ابن زهر، **التيسير**، ص.٢٣٤. الخميري، **تحفة القادم**، ص. ٢١١ ب.

(٩٣) ينفع أيضًا شم ماء الورد والآس من الصداع والذي مرده كما أشرنا سابقا يمكن أن يكون شم الروائح الخبيثة. ابن البيطار، **المغني**، ج. ١، ص. ٤ ب؛ ٨ ب.

(٩٤) يمكن الوقوف على هذا المعنى من خلال، ابن البيطار، نفسه، ص. ١٥٥أ.

(٩٥) أبو سهل المسيحي، **رسالة في تحقيق أمر الوباء والاحتراز منه وإصلاحه إذا وقع**، تحقيق لطف الله قاري، في رسائل جغرافية، عدد ٣٠٥، جامعة الكويت، ٢٠٠٥، ص. ١٠٧.

(٩٦) الشقوري، **تحقيق النبأ**، و٤.

(٩٧) اكتفى ابن الخطيب بقوله بإصلاح المجالس بالطيوب الباردة والرياحين. ابن الخطيب، **مقنعة السائل**، ص. ٦٦. وانظر أيضًا ابن هيدور، **المقالة الحكمية**، ص. ٤٨.

(٩٨) ابن سينا، **القانون**، ص. **٣٢٦**.

(٩٩) ابن البيطار، **المغني**، ج.١، ص. ٦ أ؛ ٧ب؛ ٨ ب؛ ٩ أ.

(١٠٠) ابن زهر، **التيسير**، ص.٩٩.

(١٠١) ابن خلصون، **الأغذية وحفظ الصحة**، مخطوط مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، رقم ١٠٨/١، ص.١.

(١٠٢) يجمع الأطباء على أن حفظ الصحة يقوم على ما يسمونه "الست الضروريات" ويندرج في هذا الإطار تقدير المأكل والمشرب (كما وكيفا ووقتا وترتيبا)، تقدير النوم واليقظة، تجنب العوارض النفسانية، الإقامة في الهواء المعتدل، الحركة والسكون، وأخيرا الاحتقان والاستفراغ ويكون إما بالتدلك والاستحمام واستعمال الأدوية المخرجة للفضول بإسهال بطن وإدرار بول وتسهيل عرق. ابن رشد، **الكليات**، صص.٤٧١-٤٧٥. الخميري، **تحفة القادم**، ص.١٤٩ أ. ابن مهنا، **الأيضّاح**، ص.١٣.

(١٠٣) الخميري، نفسه، ص. ١٥٥ ب.

(١٠٤) يمكن الرجوع إلى هذه الأدوية. **ابن البيطار، المغني**، ج.٤، ص ٢٦٦ أ و ب.

(١٠٥) ابن البيطار، المغني، ج.١، ص. ٢١ ب؛ ٢٢ أ و ب.

(١٠٦) ابن خلصون، **الأغذية**، ص. ١٠.

(١٠٧) ابن خلصون، نفسه، ص. ١٢-١٣.

(١٠٨) ابن البيطار، **المغني**، ج.١، ص. ٢٦ أ.

(١٠٩) الشقوري، **تحقيق النبأ**، ص. و٣.

(١١٠) لطف قاري، **رسالتان في الجغرافيا**، ص. ٦١.

(١١١) ابن خلدون، **المقدمة**، ضبط المتن خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، ص. ٤٣٣. انطر أيضًا ابن زهر، **الأغذية**، ص. ١١٢.

(١١٢) ابن زهر، **التيسير**، صص.٢٣٤- ٢٣٥.